جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بإيتاى البارود
قسم : البلاغة والنقد

" من بلاغة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في بعض أحاديث الصيام "

بحث مقدم لمجلة كلية اللغة العربية بإيتاى البارود

بقلم
الدكتور / هشام رزق إسماعيل زبادى
المدرس بقسم البلاغة والنقد

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على قدوة البشـــر وصفـــوة المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين ،

وبعد

فهذا بحث بعنوان " من بلاغة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى بعض أحاديث الصيلم " ، وإنه لمن أعظم دواعى الشرف والفخر أن يكون بحثى هذا فى رحاب روضة الرسول صلـــى الله عليه وسلم ، وهذا من فضل الله تعالى الذى لا طاقة لنا بحمده وشكره .

وبلاغة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لا تحتاج إلى بيان أو تعريف بقدر ما تحتـــاج الى فهم وتحليل وتفسير ! فهى البلاغة الشريفة التى ولدت وترعرعت وأثمرت فى أحضان البلاغـــة الأم بلاغة القرآن الكريم "وماينطق عن الهوى .إن هو إلا وحى يوحى [1] صدق الله العظيم " ، ويكفينى فى هذا المقام أن أكرر ما ذكره المرحوم الأستاذ / أحمد حسن الزيات فى شـــأن تلـــك البلاغة السامية " إن بلاغة الرسول من صنع الله ، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه وتقصر مقاييسه عن مقياسه فنحن لا ندرك كنهه وإنما ندرك أثره ...

إن البلاغة النبوية هى المثل الأعلى للبلاغة العربية ، وإذا كان كلام الله كتاب البيـــان المعجز فإن كلام الرسول سنة هذا البيان ، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول فإن البلاغة صفـــة محمد وحده [2] صلى الله عليه وسلم .

وعلى الرغم من جهود الباحثين قديماً وحديثاً فى مجال البلاغة النبوية إلا أنـــها لم توف بما ينبغى لتلك البلاغة الراقية المفعمة بالأسرار والدقائق واللطائف ، وقديما قال ابن خلـــدون ــ رحمه الله تعالى ــ مشيراً إلى هذا " لقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولـــون : شـــرح كتاب البخارى دَيْنٌ على الأمة يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشـــرح بهذا الاعتبار [3] ومن ثم فإن كلامه الشريف صلى الله عليه وسلم لا يزال بحراً زاخراً بالنفـــائس والدرر.

---

(1) النجم ٣ ، ٤ .

(2) وحى الرسالة لأحمد حسن الزيات ٣ /١٠٥ .

(3) مقدمه ابن خلدون ص ٣٩١ .

وهذا البحث المتواضع أردت أن أحقق به مثقال ذرة من تلك النفائس والدرر ، وذلك من خلال دراسة وتحليل خمسة أحاديث شريفة من صحيح البخارى ــ رضى الله عنه ــ يتعلق بعضها بفضل الصيام وثوابه ومنزلته الرفيعة عند الله جل وعلا ، وبعضها بسلوك الصائمين ، ونهيه صلى الله عليه وسلم عن الوصال فى الصيام .، وقد حاولت جاهداً ــ بقدر ما وهبنى الله تعالى من وعى بها . أن أكشف قدراً يسيراً من خصائص بلاغته المتميزة صلى الله عليه وسلم فى تلك الأحاديث الشريفة ، وذلك من خلال منهج تحليلى يعتمد على تذوق ألفاظه الشريفة ، وبيان معانيها ومراميها وكشف أسرارها ومضمراتها ، وكذا الوقوف على دلالات الحروف المختلفة ومدى ملاءمتها لمقاماتها المستعملة فيها مستعيناً فى هذا بعد الله جلت قدرته ببعض النصوص المضيئة تارة ، وباجتهادى أخرى .

وبعد فإن يكن بهذه المحاولة من توفيق وصواب فمن فضل الله عز وجل وإن يكن بها من خطأ وسوء فهم وضعف استنباط فأسأله سبحانه وتعالى العفو والرشاد والتوفيق ،

" وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب "[1] .

الأحد ١٥ ذو القعدة ١٤٢٠ هـ

٢٠ فبراير ٢٠٠٠ م

د/ هشام رزق إسماعيل زبادى

المدرس بقسم البلاغة والنقد

فى كلية اللغة العربية ــ جامعة الأزهر

فرع إيتاى البارود

---

(١) هود من الآية ٨٨ .

الحديث الأول

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال :

الصيامُ جُنَّةٌ ، فلا يرفُثْ ولا يجهلْ وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم ـ مرتين ـ والذى نفسى بيده لخُلُوف فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك ، يترك طعامهَ وشرابَه وشهوتَه من أجلى . الصيامُ لِى وأنا أجزى به والحسنة بعشرِ أمثالِها [1] .

يوضح هذا الحديث فضل الصيام وماله من أثر فعَّال على الصائمين حيث يمنعهم فى الدنيا من الوقوع فى الآثام ، ويقيهم فى الآخرة من عذاب النار ، وإنما كان الصيام كذلك " لأنه إمساك عن الشهوات ، والنار محفوفة بالشهوات كما فى الحديث الصحيح " حُفت الجنة بالمكاره ، وحُفت النار بالشهوات " [2].

وتعبيره صلى الله عليه وسلم عن تلك الأفضلية بالجملة الاسمية فى قوله " الصيام جنة " يدل على الثبوت والدوام ، وهذا المعنى هو المناسب لعبادة الصيام إذ إنه يكف الصائمين دائما عن ارتكاب المعاصى فى الدنيا ، ويسترهم من نار جهنم فى الآخرة وتلك الفائدة السامية الدائمة للصيام ترجع إلى طبيعة الصيام القائمة على ضعف قوة البدن وحفظ الجوارح وكسر شهوات النفس التى هى من أسلحة الشيطان الرجيم " وأل " فى قوله " الصيام " للجنس فيشمل صيام الفرض والنفل فكلاهما جُنَّةٌ ووقاية للصائم من المعاصى فى الدنيا والعقاب فى الآخرة .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم " الصيام جنة " " تشبية بليغ كما يقول الدكتور طه الزينى فقد شبه الصوم بالجنة التى تقى الإنسان مما يصيبه من السهام ونحوها والأصل الصوم كجنة فى الوقاية فحذف وجه الشبه والأداة [3] .

---

(1) فتح البارى للعسقلانى ط الريان ١٢٥/٤ .

(2) عمدة القارى للعينى ط/ دار إحياء التراث العربى ٢٥٧/١٠ .

(3) تحقيق المجازات النبوية للشريف الرضى ط / الحلبى . هامش ص ٣١٥ .

ويلاحظ أن هذا التشبية من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس فالصيام معنى عقلى ، والجنـــة "[1] أمر حسى ، وهذا الضرب من التشبيه عده البلاغيون من أجود التشبيهات وأفضلها ذلك لأنـــه يبـــرز المعانى ويمكنها فى النفس ويقررها فى القلب .

وإلى هذا أشار الإمام عبد القاهر ـــ رحمه الله تعالى ـــ قائلا :" إن العلم المستفاد مـــن طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يَفضلُ المستفادَ من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام "[2].

ومن ثم فإن تشبيه الصيام بالجنة فى الوقاية والحفظ قد أدى إلى تمكين وترسيخ فضـــل الصيام فى النفس وتقرير فائدته العظيمة فى القلب مما يجعل النفس المؤمنة تحرص بشـــدة علـــى الالتزام بتلك العبادة السامية والاجتهاد فى أدائها على الوجه الأكمل كى تحظى بفضلها العظيـم وعطائها الكريم .

ومما زاد من حسن هذا التشبيه البليغ وروعته أنه جمع بين طرفين متباعدين فى الجنـــس جمعاً صحيحاً واضحاً ، وهذا أعنى الجمع بين المتباعدين مع وجود الشبه البين بينهما يعد أصـــلا من أصول بلاغة التشبيه واستحسانه عند البلاغيين . وعن هذا الأصل يقول الإمام عبد القـــاهر " إذا استقريت التشبيهات وجدت التباعد بين الشيئين كلما كان أشـــد كـــانت إلى النفـــوس أعجب وكانت النفوس لها أطرب ، وكان مكانها إلى أن تُحدث الأريحية أقرب وذلك أن موضع الاستحسان ومكان الاستظراف ، والمثير للدفين من الارتياح والمتألف للنـــافر مـــن المســـرة ، والمؤلف لأطراف البهجة ، أنك ترى بها الشيئين مثلين متباينين ومؤتلفين مختلفين [3] . واشـــتمال ذلك التشبيه البليغ على هذا الأصل المهم إنما هو دليل تمكنه صلى الله عليه وســـلم واقتـــداره ومهارته فى ضبط المعانى والتقاط الأشباه الدقيقة بين الأمور المتباعدة .

هذا وقد ذكر " الشريف الرضى " فى كتابه " المجازات النبوية " أن فى قوله صلـــى الله عليه وسلم " الصيام جنة " استعارة ... حيث يقول :" وفى قوله صلى الله عليه وسلم " الصـــوم

---

(1) الجُنَّةُ : هى التُّرْسُ أو الدرع أو كلُّ ما وقاك واستترت به . اللسان ط/ دار المعارف ٧٠٢/١ .

(2) أسرار البلاغة ت/ ريتر ص ١٠٨ ط / المتبنى .

(3) أسرار البلاغة ت / ريتر ص ١١٦ .

جنة " استعارة والمراد أن الصائم الذى يخلص فى صومه ، ويستكمل آخر يومه يكون بالإخلاص فى ذلك الصوم كأنه قد لبس جُنَّةً من العقاب ، وأخذ أماناً من النار " (١) .

وما ذكره صاحب المجازات النبوية هنا غير دقيق على الإطلاق لأن فى هذا القول الشريف تشبيها بليغاً كما سبق وليس استعارة ، ومما يبدو أن الشريف الرضى ــ رحمة الله تعالى ــ كان لا يفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة فيجعل التشبية البليغ استعارة ! ولعل السبب فى هذا يرجع إلى أن مناط الفرق عنده بين التشبيبة والاستعارة يكمن فى ذكر الأداة أو حذفها فمحذوف الأداة فقط عنده من قبيل الاستعارة وليس من التشبيه !!

ومما يدل على أن قوله صلى الله عليه وسلم " الصيام جنة " تشبيه بليغ وليس استعارة أن طرفى التشبيه فى ذلك القول الشريف مذكوران والاستعارة لا تصلح إلا بحذف أحدهما كما قرر هذا البلاغيون .

ولما كان الصيام على هذا النحو من الفضل العظيم فإنه ينبغى على الصائم أن يصونه مما يفسده وينقص الثواب عليه ، وذلك بألا يرفث ولا يجهل ..... الخ . " والفاء " فى قوله صلى الله عليه وسلم " فلا يرفث " للسببية ، وهو أحد معانى الفاء التى ذكرها " ابن هشام " (٢) ومعنى " السببية " أن ما قبلها سبب لما بعدها فالصيام يقى صاحبه من المعاصى ويمنعه من النار ، وهذا يقتضى من الصائم أن يصونه مما يفسده ويضره ، وذلك بعدم الرفث والفحش ، والبعد عن أفعال الجاهلية كالصخب والسفه والسخرية ونحو هذا .

والنفى فى قوله صلى الله عليه وسلم " فلا يرفث ولا يجهل " للوجوب أى أنه يجب على الصائم ألا يرفث مطلقاً حتى لا يفسد صومه ، وهذا النفى كالنفى فى قوله تعالى :" ... فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج " (٣) من حيث الوجوب والإلزام فقد علق " الزمخشرى " ــ رحمة الله تعالى ــ على هذا النفى القرآنى بقوله : " والمراد بالنفى وجوب انتفائها وأنها حقيقة بأن لا تكون" (٤) .

---

(١) المجازات النبوية ص ١٨٩ .

(٢) مغنى اللبيب ط / الحلبى ١/١٤٠ .

(٣) البقرة من الآية ١٩٧ .

(٤) الكشاف ط / الريان ١/٢٤٣ .

وقوله صلى الله عليه وسلم " يرفث" كناية عن موصوف وهو "الجماع" لأن الجماع فى نهار رمضان يفسد الصيام ويبطله ، وهذه الكناية تعكس حسن أدبه صلى الله عليه وسلم وعفة لسانه . كما تبرز تأثره عليه السلام المباشر بألفاظ القرآن الكريم أعنى الآية الكريمة " الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ... " [1] .

وإيثاره صلى الله عليه وسلم المضارع فى قوله " فلا يرفث ولا يجهل " للدلالة على التجدد والاستمرار أى أن نصيحته عليه السلام للصائم باجتناب الرفث والبعد عن أفعال الجاهلية نصيحة متجددة ومستمرة لكل صائم سواء كان صيامه فرضاً أو نفلاً ، والتزام الصائم بتلك النصيحة المستمرة المتجددة يؤدى إلى صيانة صيامه أبداً مما لا يليق بحرمته .

وكذلك يجب على الصائم إذا أراد أن يصون صيامه مما يفسده ويبطله أن يكون سلوكه حسناً ولسانه عفاً حتى ولو تعرض للسباب واللعن والأذى من غيره فلا يسبه أو يلعنه أو يعتدى عليه أى " لا يعامله بمثل عمله بل يقتصر على قوله " إنى صائم " [2] كما قرر هذا صلى الله عليه وسلم بقوله " فيقل إنى صائم مرتين " " وأما تكرير قوله " إنى صائم " فليتأكد الانزجار منه أو ممن يخاطبه بذلك "[3] أى أن تكرير الصائم لذلك القول الشريف مرتين إنما هو لتأكيد انزجاره عن معاملة من اعتدى عليه بمثل عمله " لأن الصائم مأمور بأن يكف نفسه عن ذلك فكيف يقع ذلك منه " [4] ! وكذلك فإن من الممكن أن يؤدى ذلك السلوك الحسن من الصائم إلى كف هذا المخاطب عنه وانزجاره أيضا عن مقاتلته أو مشاتمته . والمراد بقوله " مرتين " أى يقوله مرة بقلبه ومرة بلسانه فيستفيد بقوله بقلبه كف لسانه عن خصمه وبقوله بلسانه كف خصمه عنه [5] .

---

(1) البقرة من الآية ١٩٧ .

(2) فتح البارى ١٢٦/٤ .

(3) نفس السابق ١٢٦/٤ .

(4) نفس ١٢٦/٤ ، ١٢٧ .

(5) نفسه ١٢٧/٤ .

وجاء القسم فى قوله صلى الله عليه وسلم " والذى نفسى بيـــده " تـــأكيداً " [1] أى لتأكيد ما سيأتى بعده وهو أن رائحة الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك وهذا يعد مـــن فضل الله تعالى على أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى شهر رمضان المبارك وقســـمه صلـــى الله عليه وسلم بتلك العبارة " والذى نفسى بيده " كثر وروده فى بيانه الشريفة ، ، وفى ذلك دلالـــة على غاية الإجلال والتفويض النبوى لله جلت قدرته الذى بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون .

واللام فى قوله عليه السلام " لخلوف [*] " هى لام جواب القسم أكـــد بـــه دفعـــاً لا يستبعد من الحكم بأطيبيته مع كونه مستقذراً عند الناس [2] " وفى قوله صلى الله عليه وســـلم " لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح السمك " " استعارة لأن استطابة بعض الروائح مـــن صفات الحيوان الذى له طباع يميل إلى شئ يستطيبه وينفر من شئ يســـتقذره ، والله ســـبحانه وتعالى تقدس عن ذلك لكن جرت عادتنا على التقرب للروائح الطيبة فاستعير ذلك فى الصـــوم لتقريبه من الله تعالى " [3] .

وهى استعارة تصريحية أصلية حيث شبه تقريب رائحة الطيب من النفـــس بتقريـــب رائحة خلوف فم الصائم من الله تعالى بجامع الاستطياب والارتياح فى كلٍ ، واســـتعمل لفـــظ المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، والقرينة هى انعدام فوح الرائحـــة الطيبة من ضرع الماشية فى الحقيقة ...

وقوله صلى الله عليه وسلم " لخلوف فم الصائم ... إلخ " لا يتوقف تأويله عند حـــد الاستعارة السابقة فقط ، ولكن من الممكن جعله من قبيل ما يسمى عند العلماء بالمتشابه الـــذى لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى تقديساً له سبحانه وتنزيها عن مشابهته للبشر فى اســـتطابة بعـــض الروائح والنفور من بعضها فهو جل فى علاه " ليس كمثله شئ وهو السميع البصـــير "[4] .

---

(1) نفسه ١٢٧/٤ .

(*) الخلوف جمع خِلْفٍ وهو الضرع نفسه ، وخَلَف اللبنُ وغيرهُ خُلوفاً تغير طعمه وريحه وخلف فم الصائم خلوفاً أى تغيرت رائحته اللسان ١٢٤٠/٢ ، ١٢٤١ مادة خلف

(2) دليل الفالحين لابن علان ط / الريان ٤/ ٢٧ .

(3) عمدة القارى ٢٥٨/١٠ .

(4) الشورى من الآية ١١ .

وكذا يمكن أن نجعل ذلك الأسلوب من " التخييل البيانى " كما يسميه الإمام الزمخشرى – رحمه الله تعالى – تصويرا لمدى تعظيم الله عز وجل للصائمين ، وتنبيها على غاية تكريمه لهم وتميزهم عنده سبحانه على غيرهم بذلك الشرف الرفيع وهو أن رائحة أفواههم أطيب عنده جل وعلا من رائحة المسك والطيب وبهذا التأويل نذهب بذلك الأسلوب بعيدا عن دائرة التشبيه الحسى الذى لا يتلاءم مع قدسيته سبحانه وجلال مقامه .

وتأويل ذلك الأسلوب الشريف على أنه تخييل بيانى إنما كان قياسا على نظيره من الكتاب العزيز وهو قوله تعالى " والأرض جميعا قبضته يوم القيامة... الآية " [1] .

وفى هذا القول الكريم يقول الزمخشرى رحمه الله تعالى " .. ثم نبههم على عظمته وجلال شأنه على طريقة التخييل فقال " والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه " والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز [2].

" ومع أن ابن المنير نقد الزمخشرى فى إطلاقه لفظة التخييل على كلام الله وقال مع صحة المعنى وإرادة التصوير فإطلاقه سوء أدب " [3] .

إلا أنه قد " تبع الزمخشرى كما يقول شيخنا الأستاذ الدكتور / صباح دراز حشد من العلماء كالرازى وأبى السعود والبيضاوى والشهاب والعلوى وسيد قطب " [4] وكذا أبى حيان الأندلسى صاحب " البحر المحيط " الذى قال فى تعليقه على نفس الآية الكريمة السابقة " ولما أخبر أنهم ما عرفوه حق معرفته مشيرا إلى معنى قوله تعالى " وما قدروا الله حق قدره " نبههم على عظمته وجلال شأنه على طريق التصوير والتخييل فقال " والأرض جميعا قبضته يوم القيامة... الآية " [5] .

---

(1) الزمر من الآية ٦٧.

(2) الكشاف ط/ الريان ١٤٢/٤ ، ١٤٣ .

(3) الأساليب الإنشائية د / صباح دراز ط/ الأمانة صـ ٥٠ .

(4) نفس السابق ص ٥٠ .

(5) تفسير البحر المحيط ط / دار الفكر ١٣٩/٧ ، ١٤٠ بتصرف يسير .

ولكن يبقى بعد هذا كله أن نقرر هنا شيئاً مهماً وهو أن الأمر إذا تعلق بعالم الربوبيـــة وصفات الذات العلية التى تعجز ألسنة البشر عن بيانها ووصفها فإنه ينبغى تقديس تلك الـــذات الإلهية وتعظيمها وتنـــزيهها عن كل ما يتعلق بالبشر وصفاتهم إيماناً بالقول الكريم " ليس كمثلـه شئ وهو السميع البصير " وهذا يقتضى تأويل قوله صلى الله عليه وسلم " لخلوف فم الصـــائم أطيب ... إلخ " على أنه كناية عن صفة وهى رضا الله تعالى عن الصائم والثناء على فعله الـذى نتج عنه انبعاث تلك الرائحة من فمه والتى لم تكن إلا بسبب امتناعه عن طعامه وشرابه ابتغـــاء مرضاة ربه العظيم وطمعاً فى ثوابه الكريم .

وهذا التأويل هو الأرجح هنا والأنسب والأوفى بحق ذلك المقام الجليل . ثم إن فى ذلك الأسلوب الشريف أعنى قوله صلى الله عليه وسلم " لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريـح المسك " تشبيهاً ضمنياً انعقد بأفعل التفضيل " أطيب " حيث شبه صلى الله عليه وسلم رائحـة فم الصائم " الخلوف " عند الله تعالى بالمسك فى طيب الرائحة . ، وهذا الضرب من التشـــبيه " يرتفع بالمعنى درجة فوق التشبيه " [1] كما يقول الأستاذ الدكتور / محمد أبو موسى .

وكأن الهدف من عبارته صلى الله عليه وسلم " لخلوف فم الصائم أطيـــب ... إلخ " لا يقتصر فقط على تشبيه الخلوف عند الله عز وجل بالمسك ، وإنما الغرض من كلامه صلـــى الله عليه وسلم هو أن رائحة فم الصائم عند الله جلت قدرته أطيب وأفضل من رائحة المسك .

وهذه الجملة أعنى قوله صلى الله عليه وسلم " أطيب عند الله مـــن ريـــح المســـك " مسوقة لبيان شرف الصوم عند الله تعالى وزيادة مكانته " [2] .

كما أن المراد من قوله صلى الله عليه وسلم " لخلوف فم الصائم ... إلخ" زبدته وهـــو الثناء على الصائم والرضا بفعله لئلا يمنعه ذلك من المواظبة على الصوم الجالب للخلـوف " [3] ، وفى الآخرة يجزيه الله العلى الكريم " فتكون نهكته فيها أطيب من ريح المسك كما يأتى الكلـــوم وريح جرحه يفوح مسكاً " [4] .

---

(1) التصوير البيانى ط / دار التضامن ص ٧٥ .

(2) دليل الفالحين ٤/٢٧ .

(3) شرح الكرمانى ٩/٧٩ .

(4) دليل الفالحين ٤ /٢٥ .

" ويؤخذ من قوله " أطيب من ريح السمك " أن الخلوف أعظم من دم الشـــهادة لأن دم الشهيد شبه ريحه بريح المسك والخلوف وصف أنه أطيب ولا يلزم مـــن ذلـــك أن يكـــون الصيام أفضل من الشهادة لما لا يخفى ، ولعل السبب فى ذلك هو النظر إلى أصل كل منهما فـإن أصل الخلوف طاهر وأصل الدم بخلافه فكان ما أصله طاهر أطيب ريحا "[1] .

وقوله " يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى " من العبارات المنقولة عن الله تعـــالى باللفظ النبوى الشريف وهى داخلة فى الأحاديث القدسية " أى قال الله تعالى يـــترك الصـــائم طعامه وشرابه وشهوته من أجلى ، والسبب فى هذا التقدير ليصح المعنى لأن ســـياق الكـــلام يقتضى أن يكون ضمير المتكلم فى لفظ " والذى نفسى بيده " ولفظ " لأجلى " مـــن متكلـــم واحد فلا يصح المعنى على ذلك "[2] .

" والمراد بالشهوة هنا هى شهوة الجماع لعطفها على الطعام والشراب "[3] وعطـــف الشهوة بهذا المعنى " الجماع " على ما قبلها يعد " من قبيل عطف الخاص على العـــام "[4] أو ذكر الخاص بعد العام .

وذلك كقوله تعالى " حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى "[5] .

وذكر الخاص بعد العام لون من ألوان الإطناب فى الكلام يفيد " التنبيه علـــى كونـــه أعظم وأهم بالذكر "[6] كما يشير إلى " فضل الخاص حتى كأنه لفضله ورفعته جزء آخر مغـاير لما قبله "[7] .

ومن ثم نلاحظ أن هذا الضرب من الإطناب قد أفاد التنبيه على كون الامتناع عـــن شهوة الجماع من أعظم الأفعال التى يلتزم بها الصائم وأولاها بالتنبيه وأحقها بالاهتمام والتنفيـذ لأنه يدل على مدى مجاهدة الصائم لثورة نفسه وكبحه جماح شهوته . كما يشير هذا الإطنـــاب إلى فضل هذا العمل ورفعته حتى كأنه ليس من جنس الامتناع عن الطعام والشراب .

---

(1) فتح البارى ١٢٨/٤ .

(2) نفس السابق ٢٥٩/١٠ .

(3) عمدة القارى ٢٥٩/١٠ بتصرف يسير .

(4) نفس السابق ٢٥٩/١٠ .

(5) البقرة من الآية ٢٣٨ .

(6) الإشارات والتنبيهات ط / نهضة مصر ص ١٥٥ .

(7) جواهر البلاغة للهاشمى ط / دار الكتب العلمية ص ١٨٢ .

وفى قوله " طعامه وشرابه وشهوته " سجع حسن أحدث فى النفوس نغمة مؤثرة فتنبهت وتشوقت فتمكن المعنى فى أذهانها ، وتقرر المراد فى وجدانها وتيقنت من كون الصيام الصحيح لا يصلح إلا بترك هذه الأشياء الثلاثة مجتمعة وهى الطعام والشراب والشهوة .

و " من " فى قوله من أجلى " تعليلية " [1] أى أن ترك الصائم لطعامه وشرابه وشهوته وصبره على تجنبها إنما هو بسبب حرصه على رضا الله العلى القدير دون سواه ، وطمعه فى الفوز بجزاء الصائمين المخلصين و الذى يتولاه عز وجل بنفسه ولا يكله إلى غيره ... كما سيأتى بعد قليل إن شاء الله تعالى – فى هذا الحديث الشريف .

" ولما كانت الأعمال يدخلها الرياء والصوم لا يطلع عليه بمجرد فعله إلا الله تعالى فأضافه الله عز وجل إلى نفسه المقدسة [2] فقال " الصيام لى " .

وقد أفادت تلك الإضافة " التشريف والتعظيم للصيام كما يقال بيت الله" [3] .

" والسبب فى إضافة الصيام إلى الله تعالى أن الصيام لم يعبد به غير الله بخلاف الصلاة والصدقة والطواف ونحو ذلك [4] " .

" ومعنى قوله " الصيام لى " أى أنه أحب العبادات إلىّ والمقدم عندى وكفى بقوله " الصيام لى " فضلاً للصيام على سائر العبادات [5]" .

وقوله " وأنا أجزى به " أى أتولى جزاءه بنفسى وذلك دال على شرفه وعظم جزائه [6] " .

وتقدم الضمير " أنا " العائد إلى لفظ الجلالة سبحانه وتعالى فى قوله " وأنا أجزى به " ((يحتمل أن يكون للتخصيص أو للتأكيد والتقوية لكن الظاهر من السياق الأول أى التخصيص وتقدير المعنى أى أنا أجازيه لا غيرى بخلاف سائر العبادات فإن جزاءها قد يفوض إلى الملائكة [7] ".

---

(1) دليل الفالحين ٤/٢٦ .

(2) فتح البارى ٤/١٢٩ بتصرف يسير .

(3) نفس السابق ٤/١٣٠ بتصرف يسير .

(4) نفسه ٤/١٣٠.

(5) نفسه ٤/١٣٠.

(6) دليل الفالحين ٤/٢٦ بتصرف يسير .

(7) شرح الكرمانى ٩/٨٠ بتصرف .

وهذا ما أرجحه لأن الله عز وجل قد أضاف الصيام إلى ذاته المقدسة فى قوله " الصيام لى " ومن ثم فالأولى بالجزاء عليه إنما هو الله جلت قدرته دون أحد سواه .

وقوله " والحسنة بعشر أمثالها " جملة خبرية فيها " إعلام بأن الصوم مستثنى من هذا الحكم فكأنه قال وسائر الحسنات بعشر الأمثال بخلاف الصوم فإنه بأضعافه دون حساب [1]".

والسبب فى اختصاص الصوم بذلك الفضل وبتلك المزية " أمران أحدهما : أن سائر العبادات مما يطلع العباد عليه والصوم سر بين العبد وبين الله تعالى يفعله خالصاً ويعامله به طالباً لرضاه والآخر : أن سائر الحسنات راجعة إلى صرف المال أو استعمال للبدن والصوم يتضمن كسر النفس وتعريض البدن للنقصان ، وفيه الصبر على مضض الجوع والعطش وترك الشهوات [2] " .

---

(1) شرح الكرمانى ٩/ ٠٠، بتصرف يسير .

(2) فتح البارى ٤/١٣٢ .

الحديث الثانى

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم – قـــــال :

إذا دخل شهرُ رمضان فُتِحَتْ أبوابُ السماءِ ، وغُلِّقَتْ أبوابُ جهنمَ ، وسُلْسِلَتْ الشياطينُ [1].

يبين النبى – صلى الله عليه وسلم – فى هذا الحديث الشريف السمات الرفيعة والعلامات العظيمة التى ينفرد بها شهر رمضان المعظم من بين شهور السنة كلها .

وأول تلك العلامات أن أبواب السماء تفتح بالخيرات والبركات بدليل " حديث عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – أنه سمع النبى – صلى الله عليه وسلم – وهو يقول وقد أهلَّ رمضان لو يعلم العباد ما فى رمضان لتمنت أمتى أن تكون السنة كلها رمضان " [2] .

وفى بناء الفعل المتصل بتاء التأنيث للمجهول " فُتِحَتْ " لون من الوجازة والاختصار فى الكلام " وسكت عن ذكر الفاعل للعلم به " [3] وهو الملائكة بإذن من الله العلى القدير أى فتحت الملائكة أبواب السماء .

وورد هذا الفعل فى رواية أخرى للبخارى [4] بالتشديد " فُتِّحَتْ " وهذا يشير إلى فتح أبواب السماء كلها بلا استثناء فلم يغلق باب منها قط .

وفى قوله عليه السلام " فتحت أبواب السماء " " كناية عن صفة وهى تنزل الرحمة وإزالة الغَلْقِ عن مصاعد أعمال العباد تارة ببذل التوفيق وأخرى بحسن القبول " [5] وقد أبرزت هذه الكناية ما تفيض به السماء من خيرات ورحمات تتنزل على عباد الله تعالى لاسيما فى شهر رمضان المبارك .

---

(1) فتح البارى ٤/١٣٥ .

(2) عمدة القارئ ١٠/٢٦٨ .

(3) دليل الفالحين ٤/٣٢.

(4) فتح البارى ٤/١٣٥.

(5) شرح الكرمانى ٩ / ٨٤ بتصرف يسير .

ونلاحظ فى هذه الكناية مدى التلازم والتلاحم بين الموصوف والصفة فالسماء أبـــــداً مستودع الخير والبركات والأرزاق ... يقول الله عز وجل فى كتابه العزيز : " ولـــو أن أهـــل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض[1] ..... الآية ، وكذلـــك " وفى السماء رزقكم وما توعدون [2] " صدق الله العظيم .

... ولذا يتوجه العبد إلى السماء دائماً عند ضراعته مقلباً وجهه فيها راجياً الاســـتجابة والقبول من الله العلى الكريم .

وجاء قوله " أبواب السماء " بروايتين الأولى " أبواب الجنة " والثانية " أبواب الرحمـــة " " ولا تعارض فى ذلك فأبواب السماء يصعد منها إلى الجنة لأنها فوق السماء وســـقفها عـــرش الرحمن وأبواب الرحمة تطلق على أبواب الجنة لقول النبى - صلى الله تعالى عليـــه وســـلم - فى الحديث الصحيح " احتجت الجنة والنار " ..... الحديث وفيه " وقال الله للجنة أنت رحمـــتى أرحم بك من أشاء من عبادى " [3] .

" وفائدة فتح أبواب السماء توقيف الملائكة على استحماد فعل الصائمين ، وأنه مـــن الله بمنزلة عظيمة ، وفيه إذا علم المكلف ذلك بإخبار الصادق يزيد فى نشاطه ويتلقاه بأريحية " [4] .

والعلامة الثانية أن أبواب جهنم تُغلقْ " لأن الصوم جُنَّةٌ فتغلق أبوابها بما قطع عنـــهم من المعاصى وترك الأعمال السيئة المستوجبة للنار ولقلة ما يؤاخذ الله العباد بأعمـــالهم الســـيئة ليستنفذ منها ببركة الشهر ويهب المسئ للمحسن ويجاوز عن الســـيئات [5] ".

وبناء الفعل المتصل بتاء التأنيث للمجهول " غُلّقت " أضفى على الكلام مزيـــداً مـــن الإيجاز والاختصار ، والأصل " غلقت الملائكة أبواب النار وذلك بتفويض من الله تعالى ومجـــئ الفعل " غُلّقت " بالتشديد يدل على أن أبواب جهنم كلها قد أغلقت دون استثناء فلم يفتـــح باب منها أبداً .

---

(1) الأعراف من الآية ٩٦ .

(2) الذاريات الاية ٢٢ .

(3) عمدة القارئ ١٠/٢٧٠ .

(4) فتح البارى ٤/١٣٧ .

(5) عمدة القارئ ١٠/٢٧٠ .

وفى قوله " غُلِّقت أبوابُ جهنم " " كناية عن صفة وهى تنزه أنفس الصوام عن رجس الفواحش والتخلص من البواعث على المعاصى بقمع الشهوات " [1] .

وقد أوضحت هذه الكناية الأسباب التى من أجلها تغلق أبواب جهنم عند دخول شهر رمضان وهى ابتعاد الصائمين عن رجس الفواحش واحتنابهم البواعث على ارتكاب المعاصى وذلك بقمعهم لشهواتهم . فجهنم وبئس المصير لم يجعلها الله عز وجل إلا لأهل المعاصى والفواحش .

وبين قوله عليه السلام برواية " فتحت أبواب الجنة " وقوله " غلقت أبواب جهنم " مقابلة حسنة ، وهى من مقابلة معنيين بمعنيين ، وقد أظهرت هذه المقابلة المعنى واضحاً مؤكداً فى العبارتين ، وحددت مدى الفرق بينهما تحديداً قوياً فشتّان بين " الفتح ، والغلق . والجنة ، وجهنم ".

والعلامة الرمضانية الثالثة هى " أن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين [2]" أى المقيدين فيعجزون عن إغواء المؤمنين وإيذائهم وافتتانهم .

" وذلك لأنه إذا دخل رمضان واشتغل الناس بالصوم وانكسرت فيهم القوة الحيوانية التى هى مبدأ الشهوة والغضب الداعيين إلى أنواع الفسوق وفنون المعاصى وصفت أذهانهم واشتغلت قرائحهم وصارت نفوسهم كالمرائى المتقابلة المتحاكية وتنبعث من قواهم العقلية داعية إلى الطاعات ناهية عن المعاصى فتجعلهم مجمعين على وظائف العبادات عاكفين عليها معرضين عن صنوف المعاصى عائقين عنها فتفتح لهم أبواب الجنان وتغلق دونهم أبواب النيران ولايبقى للشيطان عليهم سلطان [3] " .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم " وسلسلت الشياطين " " مجاز عن امتناع التسويل عليهم واستعصاء النفوس عن قبول وساوسهم وحسم أطماعهم عن الإغواء [4] " .

---

(1) شرح الكرمانى ٨٤/٩ بتصرف يسير . .

(2) فتح البارى ١٣٧/٤ .

(3) فيض القدير ٣٤٠/١ .

(4) فيض القدير ٣٤٠/١ .

..... ونوع هذا المجاز استعارة تصريحية تبعية حيث شبه كف الأشـــرار مـــن النـــاس ومنعهم من إيذاء غيرهم بسلسلة الشياطين وتقييدهم منهاً لهم من إغواء المســـلمين وإيذائـــهم بجامع السيطرة والقمع والقهر فى كلٍ .

ثم استعار لفظ المشبه به للمشبه واشتق من السلسلة بمعنى الكف والمنع سلسلت بمعنى كفت ومنعت على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والقرينة المانعة هى إيقاع الفعل " قيـد " أو " سلسل " على الشياطين فى الحقيقة وقد أكدت-هذه الاستعارة على مدى سيطرة الله عز وجل على الشياطين ومنعهم تماماً من إيذاء المسلمين والوسوسة لهم والتشويش عليهم عنـــد دخـــول شهر رمضان المعظم ... ، وذلك تقديراً لحرمة ذلك الشهر المبارك وتعظيمـــاً لفضـــل الصيـــام وتكريماً للصائمين .

ولعل السبب فى انفراد ذلك الشهر الكريم بتلك الفضيلة السامية ، والمنزلة النـــادرة يرجع إلى نزول القرآن الكريم فيه فضلاً عن كونه شهر الصيام ، وصدق الحق جـــل وعـــلا إذ يقول : " شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقـــان فمـــن شهد منكم الشهر فليصمه [1] ..... الآية . صدق الله العظيم .

---

(1) البقرة من الآية ١٨٥ .

الحديث الثالث

عن أبي هريرة رضى الله عنه ـ أنه قال : " قال رسول الله صـــلى الله علـــيه وسلم :

" مَنْ صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه " [1] .

فى هذا الحديث الشريف تنبيه واضح على تعظيم جزاء من صام رمضان مقراً بوجـوب فرضيته ، ومحتسباً ثوابه عند الله العلى الكريم .

ولما كان صيام رمضان محقق الوقوع متيقن الحدوث جاء تعبيره صلى الله عليه وســـلم عنه بالماضى " صام " الذى يدل على تحقق وقوع الفعل وتيقن حدوثه . دون المضارع " يصـم " مثلاً ، ومن ثم كان التعبير النبوى الشريف هنا بالماضى فى غاية الملاءمة لمقام الكلام.

والمراد بالإيمان فى قوله صلى الله عليه وسلم " إيماناً " هو " الاعتقاد بحق فرضية صومه [2]" ، والمراد بالاحتساب فى قوله " احتساباً " هو " طلب الثواب من الله تعالى [3] " أو بمعنى " العزيمـة وهو أن يصومه على معنى الرغبة فى ثوابه طيبة نفسه بذلك غير مستثقلة لصيامه ولا مســـتطيلة لأيامه " [4] .

وفى حذف المتعلق بكل من قوله " إيماناً واحتساباً لون من الإيجاز بالحذف والتقديـــر : إيماناً بفرضية صيام رمضان واحتساباً للثواب عليه من الله جل وعلا . ولايخفى الاختصار الـــذى تحقق فى الكلام بفضل هذا الإيجاز .

وقد اشتمل قوله " إيماناً واحتساباً " على احتراس حسن عن صيام المنافقين الكذابـين ، فصيام هؤلاء المنافقين لا يحقق لهم مغفرة لما تقدم من ذنوبهم . ونلاحظ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد عبر بالمصدرين "إيماناً و " احتساباً " فى مقام اسم الفاعل لأن كليهما فيه " معـــنى اسم الفاعل أى مؤمناً محتسباً [5] " .

وإيثار التعبير بالمصدر هنا على اسم الفاعل يفيد المبالغة فى الاعتقاد الجازم والتصديق الراســـخ بوجوب فرضية صيام رمضان ، والرغبة المؤكدة فى طلب الثواب عليه من الله العلى الكريم .

---

(1) فتح البارى ١/١١٥ .
(2) نفس السابق ٤/١٣٨ .
(3) نفس السابق ٤/١٣٨ .
(4) شرح الكرمانى ٩/٨٥ بتصرف يسير .
(5) فتح البارى ٤/١٣٨ .

... ولما كان احتساب الأجر والثواب من الله تعالى مرتباً على الإيمان بوجوب طاعته والالتزام بأداء فرائضه جئ بتقديم إيماناً على " احتساباً " لأن احتساب الثواب والأجر تابع للإيمان بفرائضه جلت قدرته والاعتقاد بوجوبها ولا احتساب لثوابٍ على طاعةٍ إلا بعد الإيمان بوجوبها والاعتقاد بفرضيتها أولاً ولذا لا يستقيم هذا الترتيب الطبيعى إذا قال " احتساباً وإيمانا ً."

..... وهذا يعكس دقة نظمه الشريف صلى الله عليه وسلم .

وحُذف الفاعل فى قوله عليه السلام " غُفِرَ له ..... إلخ " للعلم به فمغفرة الذنوب والآثام لا تكون إلا من الله العزيز الحكيم فحسب دون سواه ، وقد أضفى هذا الحذف على كلامه صلى الله عليه وسلم مزيداً من الإيجاز والاختصار .

ومجئ جزاء الشرط فعلاً ماضياً " غفر " يشير إلى تحقق وقوع تلك المغفرة لمن صام رمضان إيماناً واحتساباً ، وينفى أى مظنة تحوم حول تحققها وحدوثها ، وفى ذلك دلالة قاطعة على فضل رمضان وصيامه .

و " من " فى قوله صلى الله عليه وسلم " " من ذنبه " " إما متعلقة بقوله " غفر " أى غفر من ذنبه ما تقدم فهو منصوب المحل أوهى مبنية لما تقدم وهو مفعول لما لم يسم فاعله فيكون مرفوع المحل [1].

وقوله" ذنبه " اسم جنس مضاف فيشمل كل ذنب لكن خصه الجمهور بالصغائر "[2]

... وهذا هو التفسير المشهور أن هناك ذنوباً تتعلق بحقوق العباد وهى المظالم ، والتى لا تغتفر للعبد إلا بعد ردها إلى أصحابها ، وعفوهم عنها .

فاللهم تقبل منا صالح أعمالنا ، واغفر لنا ما تقدم من ذنوبنا وما تأخر .

---

(1) فتح البارى ٤/١٣٩.

(2) فيض القدير ٦/١٦٠.

الحديث الرابع

عن أبي هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مَنْ لم يدعْ قولَ الزور والعملَ به فليس للهِ حَاجةٌ فى أن يدعَ طعامَه وشرابَه [1] .

إن الصيام لا يقتضى من الصائم ترك طعامه وشرابه وشهوته فحسب ، وإنما عليه كذلك أن يمسك لسانه عن قول الزور والكذب ، ويكف نفسه عن العمل به كى يقبله الله عز وجل ويثيبه عليه كما ورد فى هذا الحديث الشريف .

ومن الواضح أن " مَنْ " فى قوله صلى الله عليه وسلم " من لم يدع قول الزور ..... إلخ " اسم موصول يتضمن معنى الشرط وأوثر النفى بـ " لم " فى قوله " لم يدع قول الزور ...إلخ " على حروف النفى الأخرى كـ " لن ، لا " مثلاً أن استعمال " لم " هو الملائم للمقام بخلاف " لن أو لا " حيث إنها تستعمل لنفى المضارع وقلبه ماضياً نحو قوله تعالى " لم يلد ولم يولد " [2] أما " لن " ، و " لا " فهما لنفى المستقبل كما ذهب النحاة حيث ذكر العلامة " ابن يعيش " فى شرحه للمفصل أن " لن معناها النفى وهى موضوعة لنفى المستقبل وهى أبلغ فى نفيه من " لا " لأن " لا " تنفى الفعل إذا أريد به المستقبل ، ولن تنفى فعلاً مستقبلاً قد دخل عليه السين أو سوف تقع جواباً لقول القائل سيقوم زيد ، وسوف يقوم زيد [3]" .

ولهذا لا يصح هنا استبدال " لم " بأىٍ منهما أعنى " لن " ، " لا " لأن المراد من قوله صلى الله عليه وسلم " من لم يدع قول الزور ..... إلخ " هو أنه يجب على الصائم قبل امتناعه عن طعامه وشرابه وشهوته أن يترك قول الزور والعمل به أولاً إذ ليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه وهو متلبس بقول الزور ومتمسك بالعمل به أى لا قبول لصيامه ولا ثواب له إذا كان كذلك ، وهذا المعنى الشريف يزول تماماً من كلامه صلى الله عليه وسلم لو استبدلت " لم " بـ " لن " أو " لا " فقلنا " من لن يدع قول الزور ... أو " من لا يدع قول الزور ...إلخ " وذلك يشير إلى مدى فصاحته صلى الله عليه وسلم ودقة بيانه .

---

(1) فتح البارى ١٣٩/٤ .

(2) مغنى اللبيب ٢١٧/١ ، والبرهان فى علوم القرآن ٣٨٠/٤ .

(3) شرح المفصل لابن يعيش ط / المتنبى ١١١/٨ ، ١١٢ .

وفى نهيه عليه السلام فى الحديث الآخر عن الرفث والجهل ، وهنا عن قـــول الـــزور والعمل به دون غيرها من المخالفات الأخرى دلالة واضحة على أمرين الأول " زيادة قبحـها فى الصوم على غيرها ، والثانى البحث على سلامة الصوم عنها ، وأن سلامته منها صفة كمال فيـــه ، وقة الكلام تقتضى أن يقبح ذلك لأجل الصوم فمقتضى ذلك أن الصوم يكمل بالسلامة عنـــها فإذا لم يسلم عنها نقص [1] بل بطل ولم يقبل .

والفاء فى قوله " فليس " هى " الفاء الرابطة للجواب بالشرط وذلك حيث لا يصلـــح لأن يكون شرطاً وهو منحصر فى ست مسائل من بينها أن يكون الجواب جملة فعلية فعلها جامد نحو قوله تعالى " ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شئ "[2] ومعنى كونها رابطة أى أنهـــا تربـــط الجواب بشرطه برباط وثيق محكم أى أن الله عز وجل – لايقبل مطلقاً صيام من تـــرك طعامـــه وشرابه فقط ، ولا يثيبه عليه إلا إذا كان تاركاً أولاً لقول الزور والكذب ومجتنباً العمل بـــه ، ولو أننا قلنا " من لم يدع قول الزور .... ليس لله ... إلخ " بدون هذه الفاء الرابطة ما تحقق هـــذا الارتباط والالتحام فى ذلك الكلام الشريف . ، وفى ذلك إشارة قوية إلى شدة تحذيره صلـــى الله عليه وسلم من قول الزور والعمل به ، وهذا يدل " على أن الكذب والزور أصل الفواحـــش ومعدن النواهى بل قرين الشرك قال تعالى " فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الـــزور " ومعلوم أن الشرك مضاد الإخلاص وللصوم مزيد اختصاص بالإخلاص فيرتفع بما يضـــده "[3] وفى قوله صلى الله عليه وسلم " فليس لله حاجة ... إلخ " " كناية عن صفة وهى عدم القبـــول كما يقول المغضب لمن رد عليه شيئاً طلبه منه فلم يقم به لا حاجة لى بكذا [4] " .

ونلاحظ هنا أن هذه الكناية جاءت عن طريق المجاز المرسل فى قوله " حاجة " بمعـــنى عدم القبول " فنفى السبب وأراد المسبب [5] " ... وهذا ما أسماه الإمام الزمخشرى – رحمـــه الله تعالى – " بالمجاز عن الكناية " وقد " عنى به – كما يقول الأستاذ الدكتور / محمد أبو موسى –

---

(1) فتح البارى ٤/١٤١ .
(2) مغنى اللبيب ١/١٤٠ بتصرف .
(3) فيض القدير ٦/٢٢٤ بتصرف يسير .
(4) فتح البارى ٤/١٤٠ بتصرف يسير .
(5) نفس السابق ٤/١٤٠ .

صور الكناية التى يستحيل فيها إرادة المعنى الحقيقى للتركيب المكنى عنه إذ أنه يرى أن شـــرط الكناية صحة جواز المعنى الحقيقى للتركيب [1] " .

وبالنظر فى قوله " فليس لله حاجة ... إلخ " نلحظ اســـتحالة إرادة المعـــنى الحقيقـــى للتركيب المكنى عنه وهو أن يكون لله عز وجل حاجة أو منفعة فى أى شئ من فعـــل البشـــر ، وحاشا لله العلى القدير أن يكون مفتقراً لغيره ! سبحانه وتعالى عن هذا علواً كبيراً .

ومن المواضع القرآنية التى أذكرها هنا لتوضيح هذا التركيب أعنى به " المجـــاز عـــن الكناية " قوله تعالى " ولا ينظر إليهم يوم القيامة " [2] وعن هذا القول الكريم يقول الزمخشـــرى : إن فيه " مجازاً عن الاستهانة بهم والسخط عليهم تقول : فلان لا ينظر إلى فلان تريـــد نفـــى اعتداده به وإحسانه إليه فإن قلت : أى فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر وفيمن لا يجـوز عليه ؟ قلت : أصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية ، لأن من اعتد بالإنسان التفت إليه وأعـــاره نظر عينيه ، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد والإحسان وإن لم يكن ثم نظر ، ثم جاء فيمـــن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز عليه النظر [3]" .

وبالتأمل فى قوله " فليس لله حاجة ... إلخ " نلاحظ ورود المجاز المرسل والكناية علـــى كلمة واحدة وهى " حاجة " ، ولعل ما يناظر قوله صلى الله عليه وسلم " فليس لله حاجة " من القرآن الكريم قوله تعالى " ولكن لا تواعدوهن سراً " وأعنى بالمناظرة هنا أى مجئ الكناية والمجاز المرسل فى كلمة واحدة ، والتماثل فى نوع العلاقة بالنسبة للمجاز المرسل وهى علاقة السببية هنا .

وفى قوله تعالى " ولكن لا تواعدوهن سراً " يقول الزمخشرى رحمه الله تعـــالى " الســـر وقع كناية عن النكاح الذى هو الوطء أنه مما يُسَر قال الأعشى :

ولا تقَربنْ من جارةٍ إن سِرَّهَا عليكَ حَرامُ فانكحِنْ أو تابدًا

ثم عبر عن النكاح الذى هو العقد لأنه سبب فيه كما فعل بالنكاح [4] "

---

(1) البلاغة القرآنية ص ٥٥١ .

(2) آل عمران من الآية ٧٧ .

(3) الكشاف ٣٧٦/١ ، ٣٧٧ .

(4) نفس السابق ٢٨٣/١ .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم " فليس لله حاجة ... إلخ " نقول : إن انتفاء الحاجة وقع كناية عن الرد وعدم القبول ثم عبر بانتفاء الحاجة عن عدم القبول لأنها سبب فى حدوثه أى نفى السبب وأراد المسبب كما ذكرنا سلفاً.

ويبقى أن أنبه إلى شئ هنا وهو أن اجتماع الكناية والمجاز المرسل فى كلمة واحدة أمر لا غرابة فيه فالنكات البلاغية لا تتزاحم كما يقول البلاغيون .

بل إنها تزيد من تقوية المعنى وتقرير المراد من الكلام ، وهذا ما تحقق فى قوله " فليس لله حاجة " حيث تضافرت الكناية والمجاز المرسل على تقرير وتوكيد رد الله عز وجل وعدم قبوله مطلقاً لهذا الصيام المقترن بالزور والعمل به والذى لم ينل صاحبه من ورائه إلا مرارة الجوع وقسوة العطش . ولله دَرُّ القائل :

إذا لم يكن فى السمع منى تصاون
وفى بصرى غض وفى منطقى صمت
فحظى إذن من صومى الجوع والظما
وإن قلت إنى صمت يوماً فما صمت

الحديث الخامس

عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أنه سمع النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول :

لا تواصلوا فايكم إذا أراد أن يُواصل فليواصل حتى السحر ، قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله قال : إنى لست كهيئتِكُمْ ، إنى أبيتُ لِى مُطْعِمُ يُطعمُنى وساق يَسقِين [1] .

فى هذا الحديث الشريف ينهى النبى - صلى الله عليه وسلم - عن الوصال [*] الممتد فى الصيام إلى آخر الليل دون أن يفطر صاحبه يومين أو أكثر ... " لأنه يورث الضعف والملل والعجز عن المواظبة على كثير من وظائف العبادات والقيام بحقها " [2] .

واللام فى قوله صلى الله عليه وسلم " لا تواصلوا " هى الناهية الجازمة حيث جزمت الفعل المضارع " تواصلوا " بحزف النون لأنه من الأفعال الخمسة ؛ وقد أفادت هذه اللام هنا النهى فى الحاضر والمستقبل ولذا فقد جاءت فى غاية المناسبة للمقام إذ أن المراد من كلامه صلى الله عليه وسلم هو النهى عن الوصال فى الصيام حاضراً ومستقبلاً أى لا تواصلوا الآن ولا مستقبلاً . ، ومن ثم فقد أوثرت هذه اللام هنا على غيرها من الجوازم " كلم " ، و " لما " لأن كلتيهما يفيد نفى المضارع وقلبه ماضياً " كما ذهب النحويون .

وهذا المعنى لا يتلاءم البتة مع المقام هنا ، وبهذا فلا يصح أن يقال : " لم تواصلوا " أو " لما تواصلوا " .

وفى التعبير بالمضارع " تواصلوا " الذى يدل على الاستمرار والتجديد مزيد مناسبة أيضاً لمقام الكلام فنهيه صلى الله عليه وسلم عن الوصال مستمر ومتجدد مع كل صياد سواء كان فرضاً أو نفلاً .

---

(1) فتح البارى ٤/٢٣٨ .

(*) الوِصالُ فى الصوم هو ألا يُفطِرَ يومين أو أياماً . اللسان ٦/٤٨٥١ مادة وصل .

(2) فيض القدير ٣/١٢٣ .

ونلاحظ فى هذا الحديث الشريف حذف متعلق الفعلـــين المضـــارعين فى قولـــه " لا تواصلوا " وقوله " إذا أراد أن يواصل " والمحذوف هنا هو المفعول به وهو " الصيام " فى كـــلا الفعلين ، والتقدير " لا تواصلوا الصيام " ، " وإذا أراد أن يواصل الصيام " ، والسر البلاغـــى هنا فى هذا الحذف هو إفادة التعميم فى المفعول مع الاختصار والإيجاز فى الكـــلام بمعـــنى " لا تواصلوا كل أنواع الصيام فرضها ونفلها " ، وكذا " وإذا أراد أم يواصل كل أنواع الصيـــام " ، ولا يخفى الإيجاز والاختصار الذى أضفاه هذا الحذف على كلامه صلى الله عليه وسلم .

وحذف المفعول به لغرض التعميم مع الاختصار هو أحد الأغـــراض البلاغيـــة الـــتى ذكرها البلاغيون فى حديثهم عن حذفه من الكلام . فيقول الخطيب القزوينى – رحمه الله تعالى – إن حذف المفعول به يكون " للقصد إلى التعميم فى المفعول والامتناع عن أن يقصره الســـامع على ما يذكر معه دون غيره مع الاختصار كما فى قوله تعالى " والله يدعوا إلى دار السلام " أى يدعوا كل أحد [1] " .

والفاء فى قوله " فأيكم " استئنافية بيانية حيث وقعت جملة " فأيكم ... حتى الســـحر " جوابا عن سؤال مقدر اقتضته الجملة الأولى " لا تواصلوا " ، وهذا ما يعرف عنـــد البلاغيـــين بشبه كمال الاتصال .

وأعتقد أن هذا المعنى للفاء دون غيره من معانيها هو المناسب هنا لسياق الكلام فـــالنبى عليه السلام حين نـــهى صحابته عن الوصال فى الصيام وهم يعلمون أنه يواصل فى صيامه حـــتى قالوا له " فإنك تواصل يا رسول الله " تطلعت نفوسهم إلى الوصال حرصا منهم على التعمق فى العبادة والاقتداء به صلى الله عليه وسلم فكان سؤالهم الذى يختلج فى نفوسهم وما مدة الوصال يا رسول الله إذا واصلنا فى صيامنا ؟ فأسعفهم بالجواب " فأيكم ..... حتى الســـــحر " أى أن مدة الوصال تنتهى عند السحر حتى لا يتجاوزوها فيقعوا فى المحظور وهو المبالغـــــة فى العبـــادة والإفراط فيها .

" وإنما أطلق على الإمساك إلى السحر [*] وصالا لمشابهته الوصال فى الصورة " [2] .

([1]) بغية الإيضاح ١ / ١٧١ .

([*]) السحر ، والسحر : آخر الليل قبيل الصبح وقيل هو من ثلث الليل الآخر إلى طلوع الفجر . اللســـان ٣ / ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ .

([2]) فتح البارى ٤ / ٢٤١ .

" لأن حقيقة الوصال هو أن يصل صوم بصوم يوم آخر من غير أكل أو شرب بينهما " [1] أى أنه لا يفطر يومين أو أكثر .

ونلاحظ تقديم " المسند إليه " فى قوله " فأيكم ..... حتى السحر " وأصل الكلام " فإذا أراد أيكم أن يواصل ... إلخ " وهذا التقديم يفيد اهتمام النبى صلى الله عليه وسلم بأصحابه ورغبته القوية فى التأكيد على تحديد مدة الوصال التى تتناسب مع طاقتهم .

ومجئ صدر جواب الشرط " فليواصل " مقترنا بالفاء الرابطة للجواب ولام جواب الشرط أضفى على كلامه عليه السلام مزيداً من الارتباط والإحكام .

وقوله صلى الله عليه وسلم " حتى السحر " احتراس حسن فلو أن النبى عليه السلام قال " فأيكم إذا أراد أن يواصل فليواصل " فقط لتوهم السامع أن هذا الوصال ممتد يشمل جميع الليل حتى يبلغ يومين أو أكثر ، وهو ما نهى عنه صلى الله عليه وسلم فدفعاً لهذا الإيهام قال عليه السلام " فأيكم ..... حتى السحر " رحمة لأصحابه وإشفاقاً عليهم .

وجاء قوله " إنى لست كهيئتكم " تعليلاً مؤكداً لقولهم له عليه السلام " فإنك تواصل رسول الله " والمعنى " أنى لست فى ذلك كهيئتكم أى على صفتكم فى أن من أكل منكم أو شرب انقطع وصاله بل إنما يطعمنى ربى ويسقينى ؛ ولا تنقطع بذلك مواصلتى فطعامى وشرابى على غير طعاكم وشرابكم صورة ومعنى [2] " . وهذا يدل على أن الوصال فى الصيام من خصائصه صلى الله عليه وسلم فقط دون غيره من أمته إلا ما أبيح الترخيص فيه إلى السحر .

وقوله عليه السلام " إنى أبيت " وفى رواية " أظل " والبيتوتة والظُلول يعبر بهما عن الزمن كله ويخبر بهما عن الدوام أى أنا عند ربى دائماً أبداً وهى عندية تشريف " [3] له صلى الله عليه وسلم وكفى بها شرفاً وفخراً .

وتقديم الجار والمجرور " لى " فى قولى صلى الله عليه وسلم " " لى مطعم يطعمنى " يفيد التخصيص هنا " فتقديم المتعلق على العامل غالباً ما يكون للاختصاص كما يقول الأستاذ

---

(1) عمدة القارئ ١ / ٧٣ .

(2) فتح البارى ٤ / ٢٤٤ .

(3) فيض القدير ٣ / ١٢٣ .

الدكتور / محمد أبو موسى ومنه قوله تعالى " لإلى الله تحشرون "أى تحشرون إلى الله لا إلى غيره [1] ومعنى هذا التخصيص أن النبى عليه السلام قد خص نفسه الشريفة فقط بالإطعام من ذلك الطعام الخاص الذى يختلف عن طعام أمته وكأنه قال عليه السلام " لى وليس لغيرى من أمتى مطعم يطعمنى " .

وحُذف المتعلق " لى " فى قوله " ساق يسقين " للإيجاز ولدلالة ذكره سابقاً فى قوله " لى مطعم يطعمنى " والتقدير " لى ساق يسقين " وما قيل فى " لى مطعم يطعمنى " من التخصيص يقال كذلك فى " لى ساق يسقين " بتقدير المتعلق المحذوف . وحذفت " ياء " المتكلم من قوله " يسقين " للإضافة .

وتكرار هذه الياء فى قوله " يطعمنى " يعضد التخصيص السابق ويقرره وكأنه قال عليه السلام " يطعمنى أنا من دون غيرى مطلقاً " ومن ثم فهو يواصل فى صيامه بلا ضعف ولا مشقة .

ووقعت الجمل " لى مطعم " ، " يطعمنى " ، " يسقينى " أحوالاً وهذه من الأحوال المتداخلة [2] .

وقوله " يطعمنى ويسقين " إما أن يكون " حقيقة بأن يطعمه من طعام الجنة وهو لا يفطر " [3] أو " مجازاً عن لازم الطعام والشراب وهو القوة ، فكأنه قال يعطينى قوة الأكل والشارب ، ويفيض علىّ ما يسد مسد لطعام والشراب ويقوى على أنواع الطاعة من غير ضعف فى القوة ولا كلال فى الإحساس " [4] ، وهذا من المجاز المرسل وعلاقته اللزومية أى أنه يلزم من وجود الإطعام والإسقاء حصول القوة والاستطاعة بمعنى يقيوننى ويمكننى فأكون كالآكل والشارب .

ولا يخفى أثر هذا المجاز هنا فقد صور المعنى المراد أفضل تصوير كما اختصر الكلام وأوجزه فقوله عليه السلام " يطعمنى ويسقين " أخصر من " يعطينى قوة الآكل والشارب " وفى إيثار التعبير باسمى الفاعل " مطعم " ، " ساق " فى قوله " لى مطعم يطعمنى وساق يسقينى "

---

(1) خصائص التراكيب ص ٢٩١ بتصرف يسير .

(2) عمدة القارئ ١١ / ٧٣ بتصرف .

(3) فيض القدير ٣ / ١٢٣ .

(4) فتح البارى ٤ / ٢٤٤ .

دلالة على أن الله تعالى دائم ثابت فى إطعامه له عليه السلام وإسقائه وكأنه قال صلى الله عليه وسلم " لى مطعم دائم يطعمنى وساق دائم يسقين " .

وجاء التعبير بالمضارع فى قوله " يطعمنى ويسقين " مؤكداً ومقرراً للدلالة السابقة أعنى " الثبوت والدوام " بل إنه أضاف إليها قدراً من الاستمرار والتجديد ، وهذا كله يلائم مقام الكلام أتم ملاءمة فإطعامه عز وجل وإسقائه لنبيه عليه السلام كان إطعاماً دائماً أبداً متجدداً مستمراً بلا انقطاع ، ولو كان التعبير بالماضى هنا " أى مطعم أطعمنى وساق سقانى " لما أفاد ذلك المعنى الشريف .

وأخيراً ففى تعبيره صلى الله عليه وسلم " يطعمنى ويسقين " تأثر واضح بألفاظ القرآن الكريم وأعنى بهذا قوله تعالى " والذى هو يطعمنى ويسقين " [1] . صدق الله العظيم .

فاللهم أطعمنا من طعام أهل الجنة وأسقنا من حوض نبيك صلى الله عليه وسلم شربة لا نظمأ بعدها أبداً .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(1) الشعراء ٧٩ .

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

١. إرشاد السارى لشرح البخارى للقسطلانى ط / دار صادر – بيروت .

٢. الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم . أد / صبَّاح دراز مطبعة الأمانة الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

٣. أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ت / ريتر ط / المتنبى – القاهرة .

٤. الإشارات والتنبيهات لمحمد بن على الجرجانى ت د / عبد القادر حسين .ط / دار نهضة مصر – القاهرة .

٥. البرهان فى علوم القرآن للزركشى ت / محمد أبو الفضل إبراهيم ط / دار المعارف .

٦. البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د / محمد أبو موسى ط / دار التضامن .

٧. بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدى أربعة أجزاء فى مجلد واحد الناشر/ مكتبة الآداب – القاهرة .

٨. التصوير البيانى د / محمد أبو موسى ط / دار التضامن .

٩. تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ط / دار الفكر .

١٠. جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع للسيد الهاشمى ط / دار الكتب العلمية – بيروت .

١١. خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى ط / دار التضامن .

١٢. دليل الفالحين لمحمد بن علان ط / الريان للتراث .

١٣. شرح الكرمانى على صحيح البخارى ط / دار إحياء التراث العربى .

١٤. شرح المفصل لابن يعيش ط / المتنبى – القاهرة .

١٥. عمدة القارى للعينى ط / دار إحياء التراث العربى .

١٦. فتح البارى للعسقلانى ط / دار الريان للتراث .

١٧. فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوى ط / دار الحديث – القاهرة .

١٨. الكشاف للزمخشرى ط / دار الريان للتراث .

١٩. لسان العرب لابن منظور ط / دار المعارف ت / عبد الله الكبير ، ومحمد حسب الله ، وهاشم الشاذلى .

٢٠. المجازات النبوية للشريف الرضى ت د / طه الزينى . الناشر / مؤسسة الحلبى .

٢١. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وضعه/ محمد فؤاد عبد الباقى ط / دار الحديث .

٢٢. مغنى اللبيب بحاشية محمد الأمير لابن هشام ط / دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبى .

٢٣. وحى الرسالة لأحمد حسن الزيات نشر / دار الثقافة – بيروت .